عبد الرحمن شكري

للدكتور احمد زكي ابو شادي

كاد يمسك بتلابيبي صاحبي متأهباً لجريمة الاعتداء بشعر لبناني طافح وأنا أقرأ ليوسف أسعد غانم نشيده « مات الليل » : —

ماتْ الليلْ وماتْ الفجرْ ... ونجومو عنّي غابوا
ومنْ دون ليل كيف بدّو البدرْ ... يطل ويشلح ثيابو ؟ !
ماتْ وورّثني همومو ... صرتْ همومْ وفوقي همومْ
وطرطش بدموعو نجومو ... ورش جبين الصبح دموم !
مات يكفّر بتعبومو ... وتجمّع التابوت نجومْ !
مات بتضحك هيونو ... والدمعه بعيون حبّابو
عاموتو صوتي بيخنّ ... ربابي انقطعتْ أوتارا
وقوافي الكانت بترنّ ... قصيدي وصحيحي شعارا
وجراحْ القلب طن . . . طن ... دقتْ حزن عليّ نهارا
الليلْ نهارْ بدنيا الفن ... وزيت السما بقنديله

وبواب الشعر بوابو !

ولمح على منضدتي « ديوان الخليل » وديوان « عبد الرحمن شكري » ، فهز رأسه إشفاقاً عليّ ، وقال : عجباً ! عجباً ! ما الذي يجمع اللبناني بالمصري ، والعامي بالفصيح ؟ قلت : يجمع بين أولئك الأدب والفن والانسانية . ألا ترى روعة الفن في شعر هؤلاء الثلاثة ؟ ألا ترى الاصالة والتحرر والابتداع ؟ أما مطران فبعد أن تشرب كلاً من الأدبين العربي والأوربي أصبحت قيثارته العرب في العقد الأخير من القرن الماضي ألحاناً

لاعهد لهم بها من قبل . وقد دار ابتكاره حول التناول الذي لطبيعة البشرية في صورها المتعددة ، ومن بينها نفسه في حالاتها المختلفة ، مراعياً وحدة القصيد ، غير متهيب تطويع اللغة للمعاني والأخيلة الشعرية ، مرتقياً شعره الأصيل بالرومانطيقية الفرنسية اللطيفة ، وخالقاً بجرأته وموهبته الفذة مدرسة متحررة تحت رويداً رويداً ، وأثر في أدباء كثيرين من الشباب والمراهقين في ذلك الحين ، كأحمد شوقي ومصطفى نجيب واسماعيل صبري ، واستمر تأثيره يصور شتى جيلاً بعد جيل ، كما تفرعت على تعاقبه مدارس شعرية متحررة ، نوعة منها مدرسة شكري التي انتسب إليها المازني والعقاد ، ولكن اليوم الشاسع بين الأستاذ وتلاميذه ، وإن آثر التواري بعد أن أصدر سبعة من دواوينه العامرة القوية الخيرة . ولكن التأريخ الادبي الأمين لا يهتم لهذا التواري ، وإنما يعني بتسجيل الحقائق كما هي ، ولا يبتي استنتاجه إلا على المنطق السليم دون أي تحيز أو تعصب ، ودون أن يخدعه أي بهرج زائف يخلعه الاشتغال بالسياسة والصحافة ، وقد زهد فيهما شكري بدرجة إقباله على الثقافة العالية ودراسة علم النفس التطبيقي ، كما تشهد بذلك مقالاته المسلسلة الشائقة في مجلة (المقتطف) .

لا نعرف لشاعرنا الرائد ما يمكن أن ينعت بالشعر التقليدي إلا ما نظمه غناء ، لأن روحه المتحررة كانت ناضجة بارزة حتى في ديوانه الأول . ومن ذلك الشعر الغزلي الباكي قصيدته التي يقول فيها : —

جعلتُ فيكَ على العلاّت آمالي لما انتزعتَ حديثَ اليأس من بالي

وقصيدته التي مطلعها : —

شكوتُ إليه ذلي فتحكما وأرحلت دمعي شافعاً فتبرما

وقصيدته « مناجاة الحبيب » التي استهلها بقوله : —

لو أن أشجان الفؤاد تطيعني لنظمتها لك في القريض نسيباً

ولكنه حتى في هذا الديوان الأول ذاته الصادر سنة ألف وثلثمائة وتسع يطلعنا بقرائح ابتداعية شائقة ، ويحمل علم الشعر المرسل Blank Verse . وما عدا عبد القادر المازني لا نعرف أحداً من تلاميذ شكري احتفظ في الغالب برقته الوجدانية العذبة ، وقلده الآخرون في تفكيره ونظراته وفي الجامد من أساليبه ، بل بالغ بعضهم في ذلك حتى تحجر الشعر على يديه . وشاء هذا البعض الاغراب فسف في موضوعاته ولم يرتفع بشعره من الخيال أو العاطفة أو المعاني أو الموسيقى اللفظية المعبرة .

وبماذا تتميز مدرسة شكري الذي قال فيه حافظ ابراهيم منذ أكثر من ٤٠ سنة.

أبي المشرينَ تعجز كل طوقٍ ... ترفعنا بأحكام القوافي
شهدتُ بأن شعرك لا يجارَى ... وزكّيتُ الشهادة باعترافي
لقد بايعتُ قبل الناس (شكري) ... فمن هذا يكابر بالخلافِ؟ !

والذي قال في شعره تلميذه عباس محمود العقاد: « إن شعر شكري لا يتعدّر انحدار السيل في شدة وصخب وانسياب، ولكنه ينبسط انبساط البحر في عمق وسعة وسكون » — أو على الأصح بماذا يتميز شكري منذ اندثرت مدرسته في جو من التحاسد والتكالب على الشهرة؟ لقد عني شكري بالجانب الفكري التأملي وبتجديد ما خلفه أمثال المعري وابن الرومي وملتون وبوب، وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية النفيسة، والتأثرات الوجدانية، والانطباعات الصوتية والعاطفية والطبيعية، وقد شجعته وألهمته وثبات مطران الرومانطيقية قبل عهده بعقدين، ولكن شكري هب من الأدب الانجليزي بدل أن يهب من الأدب الفرنسي الذي استهوى مطران في صباه قبل أن تستهويه الآداب الأخرى. كذلك نجد شكري الرائد المحلّق في الشعر المرسل، وتفانيه في هذا المجال فرائد باقية وثمر للشعر العربي، ولا نقل عنها عظمة معانيه العميقة المتغلغلة حتى قال فيه الشاعر مختار الوكيل بكتابه (رواد الشعر الحديث في مصر — ص ٤٦): « أما شاعريته فتحتضن الحياة جميعها وتصوّر الوجود بأسره لأنه شاعر عبقري لا يقف دون التعبير عن شعوره حيال الكون كله ».

هذا شاعر سابق لزمنه، وزعيم مدرسة ماتت لما ابتعدت عن سلفه ووجهه المباشر، ولكنه بني مفاخر لن تموت للشعر العربي الحديث وتُرك وما زال يترك أثره في جميع دارسيه، وقد قرأ كثيراً ولكنه أعطى من نفسه ولم ينظم مطالعاته، فهو نجم أصيل خالد كيفما كانت ألوان ضيائه.

(*) المقتطف) يشكر للدكتور « أبو شادي » ويحيي فيه هذا الوفاء بصديقه شكري أحد أركان النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي وصاحب المدرسة التجديدية الفريدة بعد أن انزوى في معتكفه في بور سعيد وأنذل من الحياة الأدبية فلم يأس عليه عارفوه ولم يقف له تلاميذه والمعارفون في مجار فضله. وقد ناب أبو شادي الشاعر المغترب عن جمهرة الأدباء في تحية شكري وكفى بأبي شادي سفيراً.